

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة الملتقى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق البشر الصادق الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ، وبعد : يعتبر فتح شبه الجزيرة الأيبيرية «إسبانيا» من أروع وأفضل حلقات الفتوح الإسلامية الأولى ، فقد كانت بمثابة تتويجاً لجهاد العرب الطويل لفتح المغرب، ودليلاً على حيوية الشعب العربي وإقدامه وإيمانه بدينه ونفسه .

فبعد فتوح المغرب التي استغرقت نيف ٧٠ سنة ما بين مد وجزر ونصر وهزيمة، وانتهت آخر الأمر بانتصار العرب جاءت هذه القفزة إلى أوروبا ، وصل العرب إلى جبل البرت المعروفة بالبرانس مضيفين بذلك نحو ٦٠٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع إلى عالمهم الإسلامى العربي .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فإن الدفع العربي القوي استمر فيما يلي البرت شمالاً فضم الجزء الجنوبي الغربي من فرنسا، وحكموا نحو عشر مساحتها لمدة نصف قرن من الزمان ثم ارتدوا بعد ذلك إلى جزيرة الأندلس وانتصروا عليها .

ومن الثابت أن شبه الجزيرة الأيبيرية أو الأندلس كان بهذا الوضع متطرف جداً بالنسبة للدولة الإسلامية، فالمسافة بين أقصاه جنوباً ومركز الدولة في دمشق أو بغداد لا تقل بحال عن سبعة آلاف كيلو متر يستغرق قطعها أربعة شهور على الأقل للفارس للمجد .

وهذه المسافة كلها كانت تشغلها شعوب حديثة الدخول في الإسلام والعروبة هي الأخرى. ومعنى هذا أن الطريق لم يكن سهلاً ولا مفتوحاً في معظم الأحوال . والمشاكل والمصاعب التي ملأت تاريخ المغرب كله في فتحه أولاً ثم في

العصور التالية للفتح كانت كلها مشاكل طبيعية ولا بد منها ، لأن دخول هذه الشعوب في دولة الإسلام كان تحولاً كاملاً في تكوينها وإدخالاً لها في التاريخ ، فكان لا بد أن تستغرق العملية زمناً طويلاً ، وكان لا بد أن تمر في كل الصعاب والمشاكل التي يعرفها كل من يعرف شبه الجزيرة الأيبيرية .

نستطيع أن نتصور إذن وضع الأندلس الذي يقع بعد هذا المغرب كله ويقوم وراء البحر على أرض أوروبية كانت مسيحية قبل دخول العرب ، وظلت مسيحية جزئياً طوال تاريخها الإسلامي لأن الإسلام ترك الناس أحراراً في مسألة دخول الإسلام فسارت العملية سراً بطيئاً وإن كان طبيعياً .

ولقد قال المؤرخ الإنجليزي نفيل يارير : إن الأندلس كانت بالنسبة للعالم العربي بلاد ما وراء البحار . وهذا صحيح وبلاد ما وراء البحار لا بد أن نستطيع الاعتماد على أنفسها إلى مدى بعيد لأن البلاد الأصلية لا تستطيع أن تواليا بالعناية والرعاية، إذ لها هي مشاكلها ، وقد كان من الأساس بالنسبة للأندلس أن يكون هناك اتصال بحرى منتظم بينه وبين بلاد الإسلام.

ولقد وفق الأندلسيون بالفعل إلى إنشاء قوة بحرية تجارية ملأت حوض البحر الأبيض نشاطاً ، ولكن الصلة أتت من الناحية الأخرى، أى من ناحية البلاد الشرقية التي لم تكن لها سياسة بحرية مستمرة، فأقتصر الجزء الرئيسى من النشاط البحري الأندلسى على بلاد المغرب وجزائر البحر، وضاعت الفائدة الكبرى التي كان من الممكن أن تتحقق لو كان هناك اتصال بحرى منتظم وغزير بين مصر والشام من ناحية، والأندلس من ناحية أخرى . وكان لهذا أثره في مصير الأندلس النهائي.

ولقد بذل الأندلسيون جهداً عظيماً في إقامة وطنهم الأندلسى واستطاعوا رغم صعوبة ظروفهم أن ينشئوا دولة ثابتة الأركان وحضارة زاهرة لا تقل بحال لمن

تحقق في غير الأندلس من بلاد الإسلام والعروبة، ولكن إذا كان ولا بد أن يعيش الأندلس فقد كان ولا بد من أن يظل الطريق البرى بينه وبين المشرق مفتوحاً ، وقد شعر الأندلسيون بذلك واجتهدوا في الإبقاء على هذا الطريق، ويتجلى ذلك في الحرب الطويلة التي قام بها الحكم المستنصر في المغرب الأقصى بقصد تثبيت أقدامه فيه، ولم يكن المستنصر يكسب شيئاً من المغرب الأقصى، ولكنه رأى أن قيام الدولة الفاطمية في المغرب يعطل الطريق، فبذل من الجهد ما بذل وضحي من مال الأندلس ورجاله ما أضعفه للوصول إلى هذه الغاية.

ومن الواضح أن قيام الدولة الفاطمية كان له أسوأ الأثر على الأندلس فإن هذه الدولة الطارئة عن طبيعة الغرب من كل ناحية كسرت وحده تاريخه وأقفلت الطريق وصرفت جهد الدولة الأندلسية والمغربية إلى حروب داخلية عقيمة، فقد قضوا كما كان للأغالبة والرستميين والمداريين والأدارسة وأقاموا مكان هذه الدول مشيخات قبلية يقوم عليها جند مرتزق فعاد تاريخ المغرب كله إلى الورا، وأنقطع الطريق بين الأندلس والمشرق. وعندما كانت الثورة على العامريين أوائل القرن الحادى عشر الميلادى تحولت بسرعة إلى حرب أهلية لم تتوقف بعد ذلك أبداً، لأن الفئات التجارية وهى إمارات الطوائف كانت صغيرة وضعيفة فتغلب عليها العدو واحدة واحدة دون أن يحصل على أى عون من المشرق.

وعلى هذه الصورة نرى أن تاريخ الأندلس في جملته إنما هو صراع طويل بين شعب عفى ذى إرادة وحضارة قوية من ناحية وظروف غير مواتية من ناحية أخرى، ففى حين انقطعت الأسباب بين الأندلس وأمم الإسلام في المشرق كانت الأبواب مفتحة على مصاريحها بين إسبانيا النصرانية وبلاد أوروبا المسيحية والبابوية، وفي المواقع الحاسمة التي قررت مصير الأندلس نجد أوروبا المسيحية كلها في جانب والأندلس والمغرب الأقصى أحياناً في جانب ، وقد كسب المسلمون مع

ذلك انتصارات كبرى ولكنهم كانوا يستهلكون أنفسهم وشيئاً فشيئاً لم يعودوا يستطيعون المقارنة.

وتاريخ الأندلس على هذا قصة صرح متين أقامه العرب بين فكي الأسد ، وفي قلب بلاد الأعداء، وقصة وخضارة زاهرة تعتبر من أجمل وأطرف فصول تاريخ الحضارة العالمية وتاريخه على هذا صفحة مجيدة من تاريخ العرب العام .

وعندما نقول الأندلس فإننا نعني بذلك ما سادته الإسلام والعروبة ، وخضع لحكم إسلامي من شبة جزيرة أيريا، ففي دفعة الفتح الدولي كان أسم الأندلس يطابق شبة الجزيرة كله ، ثم انحسر المد العربي فترك الركن الشمالى الغربى، وأقتصر الأندلس على الباقي وبقيت على ذلك إلى نهاية الخلافة الأموية أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، ثم أخذت حدود الأندلس تتراجع حتى أقتصرت على مملكة غرناطة في منتصف القرن الثالث عشر وعندما سقطت غرناطة ١٤٩٢ م أى آخر القرن الخامس عشر اختفى الأندلس كحقيقة سياسية، وإن ظل قائماً كحقيقة تاريخية حضارية.

ولفظ أندلس لم يأت من أندلس بن يافت كما تقول أسطورة أندلسية عربية، بل هوجاء من أسم الوندال وهم فريق - القبائل المتبريرة اقتحمت إسبانيا في القرن الحادى عشر الميلادى - واستقر في طرفيها الجنوبي حيث أقام زمناً طويلاً. فأصبح ذلك الجزء الجنوبي يسمى واندالوسى، ثم عبر الوندال إلى الغرب . وكان لهم فيه تاريخ طويل خلال القرن الخامس الميلادى ولكن أسم وندالوس ظل يطلق على الطرف الجنوبي لشبة الجزيرة، وبهذا الاسم سماها بربر المغرب الأقصى. فلما وصل العرب قيل لهم : إن هذا الوندلس وسقطت الواو لأنها أداة تعريف في لهجة بربر إقليم طنجة فسقطت وعوضت بأداة التعريف العربية ، فقيل الأندلس وبعد أيام العرب ظل لفظ أندلس في صورة أندلوقيا يطلق على ثمان محافظات تقع في الثلث

الجنوبي لشبة الجزيرة وهي : المرية وغرناطة وجيان وقرطبة ومالقة وقادش وولية واشيلية .

وشبه جزيرة أيبيريا وتشمل اليوم إسبانيا والبرتغال إقليم واسع تصل مساحته إلى حوالي ٦٠٠٠٠٠٠ كيلو متر وإسبانيا وحدها وهي تحتل خمسة أسداس شبه الجزيرة تعتبر ثالثة بلاد أوروبا في المساحة بعد روسيا وفرنسا فإن مساحتها حوالي ٥١٦٠٠٠ كيلو متراً مربعاً .

وشبة الجزيرة هي مجموعة عن هضبة متوسطة، ارتفاعها ٦٠٠ متر عن سطح البحر، وهي أعلى بلاد أوروبا باستثناء سويسرا، ونحو ثلث البلاد يزيد ارتفاعه على ٨٠٠ م وسلاسل الجبال التي يصل ارتفاعها إلى ١٦٠٠ متر وزيادة كثيرة .  
وتجد الفاصل بين شبه الجزيرة وبقية أوروبا هي جبال اليرت أو البرنات أو جبل الأبواب التي تسمى بالبرانس وهو تعريب للأسم الأوروي **Prunaii** وهي جبال عالية عريضة تشققها بعض ممرات جبلية وعرة ولكن يمكن اختراقها من الشرق والغرب عن طريقين سهلين ساحليين، ورغم ذلك فهي حد طبيعي فاصل بين من يعيشون جنوبه ومن يعيشون شماله.

ويقصل أيبيريا عن إفريقية مضيق جبل طارق ولا يزيد اتساعه عن ١٤ كيلو متراً ، وفي الأيام الصاحية يمكن رؤية الشاطئ من الناحية الأخرى، وعلى مسافات طويلة يتقارب الشاطئان ، ورغم ذلك فإن ذلك المضيق فاصل طبيعي حاسم، وقد حاول العرب إلغاؤه على طول تاريخهم في الأندلس فلم يستطيعوا، وعاد مضيق جبل طارق بعدهم فاصلاً بين قارتين وحضارتين وعقيلتين .

ويطل شبه الجزيرة على المحيط الأطلسى بواجهه طويلة غنية بالتعاريح الصالحة للمراقى وكذلك واجهتها التي تطل على البحر الأبيض، ولهذا فقد كانت إسبانيا دائماً بلاداً ذات أهمية بحرية وإن لم يكن شعبها بحرياً كالإنجليز مثلاً ، وقد

أنجبت إسبانيا خلال تاريخها الطويل بحارين، وملاحين مهرة جابوا البحار وشاركوا في الاكتشافات، وللأسبان دور عظيم في ميدان صيد الأسماك وهي عماد من أعمدة الثروة هناك.

وأيبيريا في هيئتها العامة مخمس ضخمة تشقه سلاسل جبال كبيرة من شرق إلى غرب، وبين كل سلسلة وأخرى يجرى واد فسيح يشقه نهر بفروعه ، وكل سلسلة من هذه السلاسل تتكون من سلاسل جبال متصلة على نسق، وإذا نظرنا إلى شبة الجزيرة من بعيد رأينا مجارى الأنهار وأحواضها تنبع من الشرق وتنحدر غرباً لتصب في المحيط وقد تتعرف نحو الجنوب عن مصباتها وفي موازة كل نهر من هذه تجرى سلسلة من الجبال. فلدينا سلسلة الجبال الكتيرية موازية لنهر المنيو «المتلون» وجنوبي نهر دويرو تجرى سلسلة الجبال الوسطى وجنوبي نهر تاجة تقوم سلسلة جبال أوريتانا وأهم أجزائها جبال طليطلة وجنوبي الوادى أنه تقوم سلسلة جبال بيطرة اللت وأهم أجزائها جبال المعدن وجنوبي الوادى الكبير تجرى سلسلة جبال سيرانيفادا.

أما الأنهار التي تصب في الشرق فأهمها الأيرو وهو أعظم أنهار شبة الجزيرة وهو يجرى بين جبال البرانس وسلسلة الجبال الأيبيرية.

وبقية أنهار الشرق صغيرة إذا قيست إلى أنهار الغرب ولكنها ذات أهمية كبيرة لأن الناحية الشرقية من شبة الجزيرة منخفضة في مجموعها مما مكن للأنهار من أن تكون أحواضاً واسعة ذات سهول فلدينا التوريا وهو نهر بلنسية، ويروى سهل بلنسية نهر آخر نهر شقر وهناك نهر شقورة وهو نهر مرسية ووادى الأرز **Guadal Rorce** وهو نهر مالقة.

وأهم سلاسل الجبال من الناحية الحضارية هي سلسلة الجبال الوسطى وتجري بين نهرى دويرو ووادى آنه، وهي تتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى

وتسمى عند العرب بجبل الشارات وأسمها اليوم جواً دراما وهو تعريب لاسم وادي الرمل وهو اسم نهر يمر هناك، فقد كانت هذه الجبال خلال العصور الإسلامية الفاصل الحقيقي بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية، وفي معظم فترات تاريخنا نجد الأندلس ما يقع جنوبي جبال الشارات، وإلى شمالها تقوم أكبر ممالك إسبانيا النصرانية وهي قشتالة أو قشتالة وليون، ونهر تاجه الذي يمر جنوبي هذه الجبال وهو الحد الفاصل الرئيسي لبلد الإسلام، فعليه كانت تقوم طليطلة أكبر عواصم الجزء الشمالي للأندلس وعلى نهر بازو تقع مدريد عاصمة إسبانيا اليوم .

أما أهم الأنهار بالنسبة لتاريخنا فهو الوادي الكبير وعليه وإلى جنوبه يقع الجانب الأكبر من كبريات مدن الإسلام في الأندلس وخاصة إشبيلية وقرطبة وجيان.

ويلى نهر الوادي الكبير في الأهمية عندنا نهر أبرو وكانت تقوم عليه سرقسطة عاصمة النهر الأعلى وكان من أكبر مراكز الإسلام والعروبة، وتليه في الأهمية من الناحية الشرقية بلنسية ولقنت ومرسية والمرية ثم مالقة .

وشبه الجزيرة في مجموعة إقليم جاف، فلا تكثر الأمطار فيه على مدار السنة إلا في الإقليم الشمالي المطل على خليج بسكايه، أما بقية شبة الجزيرة فلا يسقط عليه أمطار متوسطة ما بين ٤٠ و ٥٠ سنتيمتراً للمتر المربع في السنة وهناك نحو ٧٠٠٠ كيلو متر لا تقطر تقريباً معظمها في الوسط الجنوبي والجنوبي الشرقي. ولكن الكثير من الجهات الممطرة لا تزرع بسبب وعورة السطح وتكوينه الصخري.

وأغنى أقاليم إسبانيا من الناحية الزراعية ثلاث : ما يقع شمال جبال الشارات وحوض الأبيرو وسهل بلنسية . وإذا أمعنا النظر قليلاً وجدنا أن إقليمياً واحداً فقط من هذه الأقاليم الزراعية الغنية وهو إقليم بلنسية كان في يد العرب.

أما إقليم وادي الأبرو فإن معظمه كان في ممالك إسبانيا النصرانية، ومعنى هذا أنه على الرغم من أن النواحي الإسلامية كانت أوسع وأكثر امتداداً فإن البلاد التي كان يملكها النصارى كانت أغنى، فهنا مناطق القمح الواسعة والمراعى الغنية، ومن هنا كان غذاء أهل هذه النواحي دائماً أكثر وأحسن، فإذا أضفنا إلى ذلك وعورة بلادهم التي شدت من أجسامهم وزادت قواهم تبين أن إسبانيا النصرانية كانت في الواقع أغنى وكان سكانها من الناحية البدنية أقوى وأكثر احتمالاً .

وكانت إسبانيا على طول تاريخها بلداً يعتمد اعتماداً أساسياً على الزراعة، ولم يستغير الوضع وتتحول إسبانيا إلى بلد صناعي إلا بعد الحرب العالمية الثانية وقد أدخل العرب إلى إسبانيا طائفة من الزراعات الرئيسية فيها مثل البرتقال والزيتون والأرز والقطن، وهذه بالإضافة إلى القمح هي الحاصلات الزراعية الرئيسية لإسبانيا والبرتغال.



## شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامي

دخل العرب إسبانيا سنة ٧١١ م وكانت في ذلك الحين خاضعة لسلطان القوط الغربيين الذين دخلوا إسبانيا في جملة من دخلها من المتبربرين عند تدهور الإمبراطورية الرومانية، وقد دخلها قبلهم من المتبربرين السويق والآلان والوندال والقوط كانوا من أكبر جماعات المتبربرين عدداً وكانوا قد استقروا في إسكنديفاوه، ومنها هاجروا إلى الجنوب وهم يعرفون في لغتهم بالجات أو الجوتان . وقد انقسموا عند الخروج من إسكنديفاوه إلى فريقين : الفيزيقوط وصحة نطقه VesuGut أى القوط الفيون ، والأوسترو قوط Austra Gut أى القوط الأذكياء ، ويقال إن صحة المعنى هي القوط القصار الفيزيجون والقوط الطوال الاستروجوت، ولكن الترجمة الشائعة هي القوط الغربيون للفيزيجوت والقوط الشرقيون للأستروجوت والذين يعنوننا هنا هم القوط الغربيون.

وبعد رحلات وحروب طويلة استقر القوط الغربيون في جنوبي فرنسا وإسبانيا ثم انفردوا إسبانيا خلال النصف الثاني من القرن الخامس وأنشأوا أسرة ملكية أول ملوكها يوريك الذى حكم حتى سنة ٤٨٦ م وخلفه الأريك الثانى ، وبعد قرن من استقرار القوط في إسبانيا تولت الملك أسرة من محاربيهم تعرف بأسرة أتانا جيلدو وكانت عاصمتهم طليطلة وأمتد سلطانهم على شبه الجزيرة كله من جبال البرت إلى الزقاق.

وكان القوط مسيحيين ولكن على المذهب الأريوسى الذى يقول بطبعين منفصلين للمسيح في حين أن الكاثوليك والبابوية يقولون بطبيعة واحدة للسيد

المسيح إلهية وإنسانية في آن واحد. وكان رجال البابوية يعلمون نشطين للقضاء على الأريوسية، وكان رسلهم منتشرين في إسبانيا وأخيراً استطاعوا إقناع الملك ريكاريدو بترك الأريوسية والتحول إلى الكاثوليكية وكانت ديانه معظم السكان الأصلية في شبه الجزيرة، وقد تم ذلك وتقرر نهائياً في المجمع الديني الثالث لمدينة طليطلة سنة ٥٨٩ م ويعتبر خورخو إسبانيا هذا الحادث حاسماً في تاريخ بلادهم لأنه حقق الوحدة الدينية.

وفي سنة ٦٨٧ م صار الملك إلى واجباً وكان رجلاً قادراً عاقلاً وقد وقعت في أيامه غارة عربية سريعة على شرق الأندلس، وخلف واحبا ملك يسمى ويقرا ويسميه العرب غيطشة وقد اختلف عليه أبناؤه واضطرب الحكم بيده فثار به الكونت رودريجو حاكم قرطبة وعزله وتولى مكانه، وكان غيطشة قد أصدر قوانين ترفع اضطهاد اليهود، فأعادها لذريق وحكم بالعنف والقهر، وكانت النتيجة أن أبناء غيطشة وأهمهم إجيكا الذي يسمى أخيلا وأياس الذي يسمى عباس اتصلوا بالعرب، ووفد منهم وفد ليلقى طارق بن زياد ووعدته بالمعاونة، وهناك أيضاً من يقولون: إن اليهود كذلك أرسلوا وفداً ليقابل طارق بن زياد ويستحثه على فتح الأندلس، ولهذا فإن مؤرخي اليهود يعبرون طارق بن زياد بطلاً من أبطال تاريخهم القومي.

وقد كان لابد أن يستشير طارق بن زياد موسى بن نصير وفي هذه الأثناء تقدم الكونت بليان وأنضم إلى جماعة محرضي طارق بن زياد على فتح الأندلس. وتذكر المراجع العربية هنا قصة ابنه الكونت بليان التي أرسلها إلى بلاط لذريق فأعتدى هذا عليها فكان ذلك دافعاً لأبيها إلى الانضمام إلى جماعة أنصار بيت عيطشة أولاً ثم إلى العرب ثانياً وهناك من يقول: إن بليان تجشم عناء الرحلة إلى القيروان ليلقى موسى ويقنعه، فرأى موسى أن يختبر صدقه بتكليفه

بالقيام بغارة على الأندلس، ففعل وعاد بغنائم وأسرى فأقتنع موسى وأذن لطارق في البدء في الفتح مستعيناً ببليان، فبدأ طارق بإرسال فرقة من جنده يقودها طريف بن أبي زرعة فقامت بغارة سريعة على بلد صغير غربي الجزيرة الخضراء، فسمى هذا البلد طريفة من ذلك الحين وكان ذلك سنة ٧١٠ م . وفي العام التالي بدأ الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة . صفوة القول إن مؤرخي إسبانيا يجتهدون في تصوير ملوك القوط ملوكاً إسباناً وخاصة من أيام ريكاويدو الذي وحد الديانة، ولا مانع من قبول هذا الرأي وإن كان لا بد أن نقول إن القوط اعتبروا أنفسهم دائماً طبقة ممتازة لا صلة لها بعامه الشعب وغالية مكونة من الأيبيريين الرومان أى أهل البلاد الأصليين الذين أخذوا بمظاهر الحضارة الرومانية وليس معنى ذلك أن الأيبيريين تعلموا اللاتينية إذا الحقيقة أنهم لم يعرفوها أبداً فظلت لغة الرومان في معسكراتهم وتعلمها ناس ممن اشتغل بالكتابة في خدمة الرومان وعرضها رجال الدين، ولم يزد اتصال الأيبيريين بالحضارة الرومانية على ذلك .

ويرجع الفضل إلى الرومان في تقسيم إسبانيا إدارياً وإنشاء الطرق الكبرى وتعمير المدن الرئيسية التي كانت كلها مراكز للحكم الروماني منها برشلونة وطرطوشة وطليلة وماردة وقرطبة وإشبيلية التي عرفت باسم هيساليا ومنها جاء اسم إسبانيا الذي أطلق على البلاد كلها فيما بعد .

أما القوط الغربيون فهم لم ينشئوا شعباً، ولم يضيفوا إلى تراث الحضارة الإسبانية شعباً ذا بال، وعلى أى حال فهم كانوا أغراباً عن البلاد حتى أيام ريكاويدو وهذا الأخير لم يحكم إلا من عشرين سنة قبل دخول العرب ، فلم تتسع أيامه أو أيام خلفائه فرصة لكي يصبحوا إسباناً .

وردريق أو لدريق وهو آخر من حكم من القوط كان رجلاً مستبداً طاغية ، ولكن التعصب الديني جعل منه فيما بعد بطلاً إسبانياً . وعلى أى حال فعندما

دخل المسلمون البلاد كانت المسيحية مركزة في العواصم وكان الكثيرون جداً من أهل البلاد وثنيين أو مسيحيين بالاسم وكانوا جميعاً يثنون من وطأة القوط وظلمهم وضرائبهم وكانت المدن في اضمحلال وانهار فكان دخول العرب إنقاذاً لها على الحقيقة.

وحول فتح العرب لبلاد الأندلس فقد أفاض لنا المؤرخ الأستاذ الدكتور المرحوم حسين مؤنس في كتابه «موسوعة تاريخ الأندلس» فيقول : أسرع طارق ابن زياد بالتنفيذ بمجرد أن تلقى موافقة موسى بن نصير لأن الظروف كانت مناسبة للقيام بالهجوم الأول، فقد كان الوقت مستهل الربيع لأن شهر رجب ٩٢هـ الذي تحدده الرواية الإسلامية للفتح يوافق شهرى إبريل ومايو ٧١١ م في شمال شبه الجزيرة بصد غارة حاولها الفرنجة على إقليم أرغونته وعاصمته بنبلونه «إمبلونه» .

عبر طارق في رجب ٩٢هـ / أبريل - مايو ٧١١ م مضيق جبل طارق في قوة يقدر عددها بسبعة آلاف معظمهم من البربر وفيهم عدد قليل من الموالي وعدد أقل من العرب الخلفاء، وكان نزولهم على سفح جبل يسمى قلب Calpe ولكنه سيمسى من ذلك الحين جبل طارق، ثم سار نحو قرية صغيرة تسمى قرطبة واستولى عليها ليؤمن رأس القنطرة التي تصل بين المغرب والأندلس ثم انحدر إلى الجنوب بحذاء الساحل وأنشأ معسكراً في مواجهة جبل طارق تجاه جزيرة صغيرة تعرف بالخضراء، وقد عرف المعسكر الذي تحول فيما بعد إلى مدينة باسم الجزيرة الخضراء وعهد طارق بن زياد إلى الكونت بليان بحراسة هذا المعسكر في حالة ما إذا اضطرت العرب إلى التراجع والاحتماء به .

وتسامع لذريق بخبر نزول المسلمين فأسرع نحو طليطلة عاصمته حيث جمع ما تيسر له من الجند، وفي نفس الوقت طلب طارق مزيداً من الجند، فأرسل له موسى خمسة آلاف أخرى وبهذا أصبح جيشه ١٢٠٠٠ يضاف إليهم عدد قليل

مسن أنصار غيطشة ورجال الكونت ميلان ، ورأى طارق أن يتريث بعض الشيء قبل أن يغامر بالمسير إلى إشبيلية كما كان يريد.

وتقدم طارق غرباً حتى وصل إلى شاطئ بحيرة ضحلة تعرف ببخرة الخندق **La Tanda** وجعل إلى غربه سلسلة جبال ريتنى، وفي هذا الموقف انتظر وصول لذريرق الذى لم يلبث أن أقبل من ناحية مدينة شدونة على رأس جيش يقال إن عدته بلغت ١٠٠٠٠٠ مقاتل.

وتحدد الرواية العربية يوم ٢٨ رمضان ٩٢هـ / ١٩ يوليو ٧١١ م تاريخاً للموقعة الحاسمة التي انتصر فيها المسلمون وانفتحت على أثره أبواب الأندلس ولكن الحقيقة أن المعركة دامت أكثر من يوم، وأنها دارت في كل المنطقة المحصورة بين جبل طارق ومجرى نهر الرباط وبحيرة الخندق والتي تمتد إلى مدينة شدونة شمالاً والغالب كذلك أن القتال دار في نواح متعددة من تلك المنطقة وربما وصلت إلى شريش، وهناك من يقول إن القتال وصل إلى شريش **Terez** على أى حال فقد استمر القتال حتى انهزمت القوات القوطية تماماً وتقول المراجع العربية إن لذريرق قتل في المعركة ولكن الغالب أنه نجا في عدد قليل من رجاله ، وربما يكون المسلمون قد أدركوه عند نهر يسمى وادى الطبين حيث لاقى حتفه، وربما يكون كذلك قد استطاع الفرار إلى الشمال.

المهم لدينا أن هذه المعركة قضت على المقاومة القوطية وفتحت الطريق إلى عاصمة القوط وقد كان لذريرق كما قلت غاصباً للعرش أى إن المسلمين على الحقيقة لم تكن أمامهم مقاومة حقيقية بعد ذلك.

وكان على طارق متابعة لتعليمات موسى بن نصير أن يعود بعد ذلك إلى المغرب كما فعل عبد الله بن سعد بعد معركة سيبتلة قبل ذلك بخمسة وستين عاماً، ولكن العرب تعلموا كثيراً خلال هذه المدة، ثم إن جنود طارق كان لا يمكن أن

يعودوا أدراجهم بعد هذا النصر، فلذلك معناه حرمانهم من ثمرة جهادهم. وكان هناك أيضاً أبناء غيطشة وأنصارهم والكونت بليان ومن معه، وهؤلاء جميعاً كانوا يدفعون بطارق دفعاً إلى أن يواصل سيره في الأندلس.

ورأى طارق أن الحزم يقضى بالمسير والاستيلاء على عاصمة القوط دون أن يضيع وقتاً في الاستيلاء على مدن وقواعد أخرى قبل ذلك، فسار شمالاً بمعظم قوته، وعبر الوادى الكبير غربى قرطبة وأتبع إلى الأمام، وفي نفس الوقت أرسل فرقة من جيشه يقودها مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك فاستولت على قرطبة وملكت ناحية قنطرة الوادى وبذلك أمنت طريق عودة الجيش .

ووصل طارق إلى طليطلة ودخلها دون صعوبة قاطعاً بذلك نحو ٦٥٠ كيلو متراً بعد انتصار وادى لكة، وقد وجد المدينة شبه خالية لأن رجال القوط تسارعوا عندما سمعوا بمسير المسلمين نحوهم فحمل كل منهم ما استطاع، وأخذ عائلته وولى هارباً واستولى على سكان البلد على أثر ذلك فزع فهرب الكثيرون منهم من بينهم الأسقف سندرد أسقف طليطلة، فقد حمل ذخائر الكنيسة وولى هارباً في اتجاه ما يعرف اليوم بوادى الحجارة وبرشلونة ومن هناك إلى روما.

ويضيف كلامه فيقول : وقد عجل طارق فسار في أثر الهاربين حتى أدرك الكالاد إيناريس المعروفة بقلعة عبد السلام إلى الشمال الغربى من طليطلة، ثم أدركه الشتاء، فعاد إلى طليطلة وأراح فيها .

ووصل خبر هذا النجاح الباهر إلى موسى بن نصير في القيروان، وهنا نجد نفراً من المؤرخين يذهبون إلى أن الغيرة استبدت بموسى فغضب على مولاة وأرسل إليه يأمره بالوقوف عند هذا الحد وأن ينتظر حتى يقدم هو عليه، ونجد كذلك نفراً آخر منهم يقولون : إن موسى غضب على طارق فعلاً ولكن ليس نتيجة للحسد وإنما خوفاً على جند المسلمين من الترامى إلى هذا البعد في بلد فسيح ودون نظر

إلى العواقب، وربما كان رأى هؤلاء الأخيرين هو الأصوب أننا نعلم أن طارقاً بعد أن استقر في طليطلة بعث إلى مولاة بتفصيل ما دار في الفتوح وطلب إليه مدداً.

ولم يتردد موسى في المسير إلى الأندلس في قوة كبيرة ووصل في الشتاء أواخر ٧١١ م وأوائل ٧١٢ م إلى طنجة، وفي يونيو ٧١٢ م (رمضان ٩٣ هـ) عبر إلى الأندلس في قوة تقدر بثمانية عشر ألف رجل غالبيتهم العظمى من العرب هذه المرة، وكان فيهم عدد كبير من كبار رجال القيسية والكلبية وعدد كذلك من التابعين أشهرهم على بن رباح وحش بن عبد الله الضغاني.

نزل موسى في الجزيرة الخضراء ولم ير - بناء على نصيحة رجاله وحلفاء المسلمين من أهل البلاد - أن يفتح جانباً من شبه الجزيرة وهو في الطريق إلى طليطلة، فبدأ بالاستيلاء على شذونة واستولى كذلك على حصنين كبيرين إلى جوارها هما قرمونة وقلعة وادى أيره، ثم تقدم نحو إشبيلية وحاصرها حتى سلمت بعد وقت قصير وانسحبت حاميتها إلى الغرب إلى مدينة نبله Niebla وهي اليوم من مدن البرتغال.

وتقدم موسى نحو ماردة وكانت من كبار بلاد إسبانيا القوطية، يحيط بها سور كبير حصين، وقد اعتصم بها جانب كبير من جيش لذريق المنهزم، فحاصرها موسى واستعمل في ذلك أدوات الحصار، ولقى المسلمون مقاومة عنيفة وتحملوا خسائر كبيرة في الأرواح، ولكنهم استمروا في الحصار حتى استسلم البلد في أول شوال ٩٤ هـ / ٣٠ يونيو ٧١٤ م، وقد وجد المسلمون في ذلك البلد ذخائر وافرة ملأت أيديهم.

وفي شهر يوليو التالي تقدم موسى ومن معه نحو طليطلة وخرج طارق بن زياد للقاء مولاة موسى حفيها به ويقال: إن موسى أهانه أو ضربه بالسوط وغير

ذلك، ولكن هذا كله مستبعد، وربما يكون الرجلان قد تعابيا ، ولكننا نجدهما عقب ذلك مباشرة يسيران معاً لمواصلة الفتوح.

وفي أثناء ذلك انتفضت إشبيلية على المسلمين، فعجل موسى بإرسال ابنه عبد العزيز بن موسى فأطفأ الثورة واستولى على ليلة وباجه واكشونيه، وكانت أكبر مدائن الجنوب الغربي لشبة الجزيرة، ومنها يتكون النصف الجنوبي للبرتغال اليوم، وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسي من هذه الناحية.

ويذهب المؤرخ الإسباني سافورا إلى أن موسى بعد أن تلاقى مع طارق في طلبيرة تسامع بظهور لذريق تلك القوط في غرب شبة الجزيرة في ناحية سلمنكة، فأسرع إلى هناك وتلاقي مع لذريق وبقايا القوط في معركة عند بلدة تسمى **Sogoyuela de les cornegos** قرب قرية تامس Tamames الحالية ، وهناك لقي لذريق مصرعه الأخير، ولكن يبدو أن ذلك كله غير صحيح و **Sogoyuela** التي قرأ سافورا اسمها في مدونة لاتينية قديمة الأغلب أن صحتها **Sidonia** أي شذونة، وعلى هذا يكون لذريق قد قتل في معركة وادي لكة الطويلة قرب بلدة شذونة .

ثم عاد موسى بن نصير إلى طليطلة وبدأ عمله كأول ولاة الأندلس، وهو دون شك أول عربي يحكم قطراً أوروبياً، وقد أكد موسى هذا المعنى عندما أمر بضرب عملة إسلامية في دار السكة بطليطلة، ولما كان عمال هذه الدار إسباناً يكتبون صيغ العملة باللاتينية فقد ظهرت هذه العملة الإسلامية وعليها شهادة الإسلام باللاتينية، فتقرأ على أحد وجهيها:

**IN NOMINE DEL : NON DEUS NISI DEUS SOLUS NON DEUS ALIVS.**

ونقرأ في الوجه الثاني :

**HIC SOLIDUS FERITUS IN SPANIA ANNO 714.**

وأراح موسى في طليطلة شتاء ٧١٣ م - ٧١٤ م ، ومن هناك أرسل -  
رسولين إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليحملوا إليه التبا مع طرف من الذخائر،  
ويقال إن الرسولين كانا على بن رباح التابعى ومغيث الرومى مولى الوليد.

وعندما أقبل ربيع ٧١٤ م خرج موسى بجيشه في اتجاه شمالى شرقى قاصداً  
سرقسطة، وتمكن من الاستيلاء على هذه المدينة التى تعتبر مفتاح منطقة وادى أبره  
كلها وقام التابعى حنش بن عبد الله الصنعانى باختطاط جامع سرقسطة الذى  
سيصبح من كبار مساجد الأندلس المشهورة.

وعقب ذلك سار موسى نحو لاروة متبعاً الطريق الرومانى الكبير المبلط الذى  
يعرف بالطريق القيصرى *Via Augusta* ويسمى بالعربية الرصيف أو البلاط،  
وقد استولى موسى على لاروة وبدأ يستعد للسير نحو برشلونة، ويقال : إن نيته  
كانت معقودة على أن يتابع الطريق القيصرى حتى أرغونة ومنها إلى روما.  
ويسورد المقرئ فى نفع الطيب نصاً يقول : إن موسى كان يزمع الاستيلاء  
على القسطنطينية من الغرب، وهو إسراف فى حسن الظن، كما هو واضح، لأن  
المسافة بين طليطلة والقسطنطينية لا تقل عن ٨٠٠٠ كيلو متر كلها جبال  
ومرتفعات يحتاج قطعاً إلى أعداد وعدد يصعب تصورهما.

ولكن الظروف لم تمهل موسى للاسترسال وراء لاروة فقد أقبل إلى معسكره  
مغيث الرومى عائداً من دمشق بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بأن يذهب  
موسى وطارق معاً إلى دمشق ليقدا بنفسيهما بياناً عن الفتوح إلى الخليفة، ويبدو  
أن مغيث الرومى لم يكن باراً بموسى فيما نقل إلى الوليد من أخباره، وكان مغيث  
رجلاً مستأمرأ قلقاً ، وقد انتهت حياته فى معركة الأشراف فى الغرب الأوسط،

ولكن أسرته : بنو مغيث ستصبح من كبار بيوتات الأندلس ومن موالى بنى أمية المقربين .

ولم يرفض موسى الاستجابة لهذا الطلب، ولكنه طلب إمهاله حتى يستكمل ففتح الشمال الغربي لشبه الجزيرة كما فتح الشمال الشرقي، فأمر طارق بمواصلة السير على الطريق الرومانى وسار هو مع فهر أيره فى اتجاه الشمال الغربى ثم غرباً بعد ذلك نحو جليقية، فسار بجذاء الجبال الكتيرية، أما طارق فقد تمكن من إخضاع منطقة أرغونته وعاهد أميرها المسمى فرتون، وقد أسلم فرتون هذا وأصبح جد بنى قسسى الذى سيكون لهم دور كبير فى تاريخ الثغر الأعلى الأندلسى ، وبعد ذلك أتجه غرباً ليلحق بموسى فاستولى على حصنى أمايا ثم على مدينة اشترقه *Astorga* وكانت مركز الناحية التى تسمى فى النصوص العربية إليه والقلاع *Alava-Castilla* وتسمى فى الجغرافية التقليدية الإسبانية بأقليم قشتالة القديمة وآخر ما استولى عليه طارق كان بلدة ليون، قرب برغش الحالية.

أما موسى فقد سار أول الأمر بجذاء ايرو الأعلى فى اتجاه منبع النهر ثم اتجه إلى الشمال عابراً الجبال الكتيرية، ودخل إقليم اشثورياس فاستولى على ابيط ووصل إلى ساحل خليج بسكاية عند خيخون، وهرب أهل الناحية وبقايا القوط شرقاً نحو البلدة المسمى حالياً كنجاس أونيس *Cangas de Onis* ووراءها تقوم منطقة جبلية وعرة ترتفع فيها ثلاث قمم عالية تسمى بقمم أوروبا *Los picos de Europa* .

وعندما وصل موسى إلى ساحل خليج بسكاية وقائدة طارق إلى مداخل إقليم جليقية شعر موسى أنه أتم فتح شبه الجزيرة وأنه يستطيع بعد ذلك أن يلبي أمر الخليفة الوليد.

وهكذا نرى هذين الفاتحين العظيمين يأخذان طريق العودة إلى المشرق في ذى القعدة ٩٥ هـ / سبتمبر ٧١٤ م ، وقد خلفا الأندلس وراءهما بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتح العربية، ففي بحر ثلاث سنوات من الجهد المتصل والحركة الدائمة استطاع هذان الرجلان مع حفنة من المسلمين ما بين عرب وبربر لا تزيد على ٣٠٠٠٠ مقاتل أن يفتحوا قطراً أوروبياً واسعاً يعتبر من أصعب الأقطار الأوروبية من الناحية الجغرافية الطبيعية، وقد قام المسلمون بهذا الفتح بشجاعة تعتبر مضرب المثل، ومساراً على خطة عسكرية وسياسية واضحة ترك على خبرة بعيدة بمسائل الحروب وفتوح البلدان، وقاد موسى وطارق رجاءهما بحزم ونظام وبعد نظر تذكرنا بقيادات خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعمرو ابن العاص وأبي عبيدة الجراح.

وقد خلف موسى ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس مكانه، فإذا اعتبرنا طارق بن زياد أول ولاة الأندلس كان عبد العزيز هو الثالث، وقد بدأ ولايته في سبتمبر سنة ٧١٤ م .

وقد ذكرنا فيما سبق ما أصاب موسى على يد سليمان بن عبد الملك ، ويقال : إن طارق بن زياد شكاً لسليمان سوء معاملة موسى إياه واختصاصه نفسه بخير الأسلاب والمغانم وخاصة مائدة سليمان التي طار صيتها في الروايات الإسلامية، وما هي في الحقيقة إلا مذبح كنيسة طليطلة التي المنضدة التي يقف عندها

القس ليقوم بالصلاة، وكانت منضدة غالية محلاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.

وعلى أى حال فإن سليمان بن عبد الملك ، وكان عدواً لكبار رجال دولة بنى أمية وكبار الفاتحين، لم يستطع تقدير طارق العظيم، فأنزوى هو الآخر ومات فى هول .

وبداية حكومة عبد العزيز بن موسى يبدأ فى تاريخ الأندلس عصر الولاية ، أى الولاية التابعون للحكومة المركزية فى دمشق، وتستمر هذه الفترة حتى سنة ٧٥٨ م وهى السنة التى قامت فيها إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

ولكن عبد العزيز أنفق معظم أيام ولايته فى استكمال فتح شبة الجزيرة، فإن الفاتحين الكبارين قضيا على وراث القوط ووصلا إلى الحدود فى كل ناحية، وبقيت بعد ذلك أجزاء كاملة - شبة الجزيرة فى شرقها وغربها دون فتح - وكان لا بد من استكمال فتحها، وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى ، ولهذا فنحن نعتبره ثالث فاتحى الأندلس ، ونعتبر فترة الولاية تبدأ بانتهاء ولايته سنة ٧١٦ م .



## ولاية عبد العزيز بن موسى

### واستكمال فتح الأندلس ٧١٤ م - ٧١٦ م

ونلاحظ أثناء الشهور الأخيرة لموسى وطارق أن فتح الأندلس أثار في المغرب كله حركة كبرى، فتسابق الناس إلى العبور إلى تلك الأرض الجديدة الغنية ليستقروا في نواحيها ويصيوا من خيراتها، ويقول الرازي: إن الناس عبروا على كل ما استطاع العبور عليه حتى جذوع الأشجار، ولهذا فإننا نجد في شبه الجزيرة ابتداء من أيام عبد العزيز بن موسى الوفاً بعد ألوف من المهاجرين الجدد ينساحون في كل ناحية من نواحي شبه الجزيرة، وفي بعض الأحيان نجد بطوناً بأسرها من قبائل بربرية تعبر إلى الأندلس وتستقر في نواح قاصية مثل قشتالة القديمة، ولكن أكثر الاستقرار كان في أحواض الأنهار الأربعة الكبرى: الوادي الكبير والوادي أنة وتاجه وإيرو، وفي أحواض هذه الأنهار ستنمو الجماعات الإسلامية الضخمة التي ستكون سكان الأندلس الإسلامي.

وكان عبد العزيز بن موسى يشعر بالفعل أن عليه أن يتم ما تركه أبوه من فتح، وقام بجهد كبير في هذا السبيل ولكن التفاصيل التي لدينا عن أعماله قليلة، فنحن نعلم أنه قام عقب توليه الأمر بحملة على غرب شبه الجزيرة ففتح يابرة وشفتين وقلمرية، وفي نفس الوقت كان قواده يستكملون فتح الشمال الغربي من شبه الجزيرة إلى جبال البرت واستولوا على برشلونة وطرطوشة وجرونة وأرغونة، وهذه الأخيرة تقع شمالي الجبال وفي جنوبي فرنسا.

وقام عبد العزيز بن موسى بنفسه بحملة واسعة على شرق الأندلس ففتح البيرة وهي بلدة كانت تقوم على مقربة من موقع غرناطة، وكانت غرناطة إذ ذاك

قرية صغيرة جداً فلم يعظم أمرها إلا فيما بعد، وإلى أواخر القرن العاشر الميلادي كانت البيرة لا غرناطة هي عاصمة ذلك الإقليم ، وقد أطلق اسمها على كورة واسعة تشمل حوض نهر شيل فرع الوادي الكبير.

ومن هناك اتجه عبد العزيز شرقاً نحو ما عرف بعد ذلك بكورة مرسية، وكانت تلك الناحية إمارة مستقلة تحت سلطان القوط، وكان يحكمها أمير قوطي يسمى تدميره، وقد أطلق العرب اسمه على الناحية كلها فيما بعد، فإذا احتل تدمير كان المراد مرسية بلداً وكورة.

وقد تفاوض تدمير مع موسى في الدخول في طاعة المسلمين محتفظاً باستقلاله فقبل عبد العزيز ذلك واشترط عليه دفع جزية مالية سنوية وتسليم سبعة حصون يحتلها الجند العربي ضماناً لوفاء تدمير بعهده.

وقد احتفظت لنا المراجع بنص المعاهدة وهي مؤرخه في رجب ٩٤ هـ / أبريل ٧١٣ م ، ويفهم من تاريخها أن مفاوضة سابقة كانت قد تمت أيام موسى وانتهت إلى هذه المعاهدة قبل خروج الفاتح الكبير من الأندلس، أما عبد العزيز فقد قام بالتنفيذ.

وكانت عاصمة الأندلس الإسلامي في ذلك الحين إشبيلية وفيها أقام عبد العزيز وقد سكن في دار ملحقة بكنيسة تسمى سانتا زيبه ، حولت إلى مسجد، وتزوج بأيلونه أو اجيلونه أرملة لذريق ويسمىها العرب أم عاصم ، ويبدو أن سلطانها عليه كان عظيماً مما أثار عليه نفراً من قواده، وقد تفاهم هؤلاء مع سليمان ابن عبد الملك على التخلص من عبد العزيز فأغتاله زياد بن عدرة البلوي في أوائل رجب ٩٧ هـ / مارس ٧١٦ م ، هجم عليه في المسجد بعد صلاة الفجر، وقد أثار قتله اضطراباً كبيراً بين قواد الأندلس، وانتهى أمرهم إلى أن اختاروا بأنفسهم والياً جديداً هو أيوب بن حبيب اللحمي، وكان ابن أخت موسى بن نصير.

## عصر الولاة

٧١٦ م - ٧٥٨ م

تولى أمر الأندلس خلال الفترة ٢٢ والياً ، حكم واحد منهم مرتين، ومعنى ذلك أن متوسط مدة الولاى أقل من سنتين، وهذا وحده يكفى لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة .

وبعد أن درسنا تاريخ المغرب خلال الفترة نتيين أن ذلك القلق كان هو الأمر المتوقع، فلدينا، لآ اضطراب السياسة العامة لبني أمية بعد الوليد بن عبد الملك ووقوعها فريسة للعصبيات القبلية والشخصية، وكان لا بد أن يكون لذلك كله أثره فى الأندلس كما كان له أثره الذى رأيناه فى المغرب.

وهناك كذلك الخلاف الكبير بين العصبيات العربية فى المغرب، ثم خلاف العرب البلديين مع العرب الشاميين، ثم خلافات هؤلاء جميعاً مع البربر، وكان لا بد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس.

وهناك أيضاً التنازع على السلطان بين الطامحين فيه، وقد رأينا ما كان من أمر حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع وابنه عبد الرحمن ، ولدنا فى الأندلس ما يشبه ذلك.

يضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلد قائم بذاته وله ظروفه التى لا تشبه ظروف أى بلد مما فتحه المسلمون فى ذلك الحين ، فإن الأندلس كان ثغراً لبلاد المسلمين، وكان لا بد لأهله من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد ، ويستوقف نظرنا أن العرب برغم مشاغلهم الكثيرة فى الأندلس استطاعوا أن يواصلوا الفتوح فى غالة نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس وكسبوا خلال هذه

الفترة انتصارات كبيرة تضيف صفحات مجيدة إلى سجل الفتوح الإسلامية، ولا يقلل من أهمية هذه الفتوح أنها وقفت بعد موقعة بلاد الشهداء ، لأننا سنرى أن المد العربي كان لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية ، كان لابد أن يقف عند نقطة ما، ونقطة بلاط الشهداء نقطة رائعة بالنسبة لقوم عددهم خليل نسبياً بدأوا فتوحهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة .

وهناك أخيراً مشاكل الحكم في الأندلس نفسه، وهو بلد فسيح جداً دخله العرب في وقت بلغت فيه مظالم القوط ذروتها، فكان على العرب أن يعالجوا مشاكل جهة ، وإن الإنسان ليدهش إذ يراهم - رغم صعوبة ظروفهم وقلة العون الذى تلقوه من الحكومة المركزية - يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا بأس به إطلاقاً، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً بل نشروا بينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك، وعنوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الري، وأنشأوا مساجد في كل نواحي الأندلس تقريباً.

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها من التعقيد صار الأمر إلى عبد الرحمن بن معاوية الداخل وهو من عباقرة الحرب والسياسة في تاريخ الإسلام، فأنقذ البلاد من الفوضى والعرب من نتائج الاستمرار في الحرب الأهلية، واحتفظ بشمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين ، فلم تضع هذه الجهود كلها هباءً .

ولا يتسع المجال هنا للكلام بالتفصيل على ما قام به أولئك الحكام خلال فترة الولاة، ولكننا سنكتفى بتتبع ميادين العمل الرئيسية ثم دراسة المشاكل الكبرى التى واجهت الحكم العربي وما قام به الحكام حيالها حتى نصل إلى إمارة عبد الرحمن الداخل.



## خلافاً للعرب

### فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر

رأينا كيف صار أمر الأندلس إلى أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى ابن نصر في منتصف ٩٧ هـ / مايو ٧١٦ م تقريباً، وأيوب بن حبيب يمثل العرب البلديين ، أى العرب الذين قاموا بالفتح واستقروا في البلاد وأصبحوا بمقتضى هذا يشعرون أنهم أولى بها من غيرهم .

وقد تواطأ أيوب بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى مع الخليفة سليمان أملاً منهم في أن تؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم في البلاد.

وقد ظل أيوب بن حبيب حاكماً نحو أربعة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً ذا بال، ولكنه هو الذى نقل عاصمة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة، لأن موقعها أكثر توسطاً، ثم إن أعداداً كبيرة من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتز بهم.

ولكن الأمور لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه ، فقد قام يزيد بن أبي مسلم والى سليمان بن عبد الملك على المغرب بتعيين الحر بن عبد الرحمن الثقفي على الأندلس، فكان الحر على هذا يمثل الحكومة المركزية ويعتز بالجنود الشامي، مما أبعده عن العرب البلديين، بدأ الحر ولايته في ذى الحجة ٩٧ هـ / ٧١٦ م واستمر ستين وثمانية أشهر لا تنسب المراجع إليه فيها كبير عمل، ولكنه هو الذى أقام دار الإمارة في قرطبة. وكانت هذه الدار في مواجهة قنطرة الوادى. وكانت قبل ذلك مقراً للحاكم القوطى الذى انتزع مغيث الرومى البلد من يده، وقد سكن مغيث في جانب من القصر عرف ببلاط مغيث، ثم اخرجته منه أيوب بن حبيب وسكن فيه، فلما جاء الحر بن عبد الرحمن الثقفي زادت عنايته بالقصر

وجعله قصر إمارة فعلاً وسمى هو والأرض الواسعة الممتدة إلى خربة على ضفة النهر باسم بلاط الحر.

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبد العزيز في ١٠ صفر ٩٩ هـ / ٢٢ سبتمبر ٧١٧ م ، نظر في أمور المغرب والأندلس فأقام على الأول إسماعيل بن عبيد الله وعلى الثاني عنبسة بن سحيم الكلابي، وكلاهما كان من خيرة الحكام.

. بدأ عنبسة في رمضان سنة ١٠٠ هـ / أبريل - مايو ٧١٩ م ، وعلى الرغم من قصر المدة التي تولاها فإنه من الولاة القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية فهو أول من نظر في حصر أرض الأندلس وتمييز ما فتح منها صلحاً مما فتح عنوة، وبدأ باستخراج الخمس من العنوة ليجعله ملكاً للدولة، وأتم هذا فيما يتصل بإقليم قرطبة، والمفروض أنه فتح عنوة، وقد خرجت في الخمس أرض واسعة أنشأ الحر في بعضها مقبرة للمسلمين وزرع الباقي على الزراع على أساس المزارعة أي المناصفة في الغلة ، ثم أعاد بناء قنطرة الوادي وكانت قد تصدعت .

وفي ربيع سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م خرج عنبسة غازياً في غالة فأستشهد في طرسونة في يوم عرفة من العام نفسه، وبذلك يكون هذا الرجل قد ختم حياته بالاستشهاد في سبيل الله ، وهو أعظم الصالحات .

وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكر في إخلاء الأندلس من المسلمين خوفاً على مصيرهم في ذلك الثغر السحيق في نظره، ولكنه عدل عن هذه الفكرة إذ كان المسلمون قد استقروا في البلاد وكثروا وبدا نفر من أهلها يسلمون، فلم تكن هناك وسيلة لتنفيذ هذا القرار الخاطيء دون شك.

بعد السماح بن مالك وبعد موت عمر بن عبد العزيز عاد الأمر في المغرب والأندلس إلى الجند الشامى وولاقم، فثارت خصومات بين الولاة والعرب البلديين، لاتفاق مصالح الجانبين ، وقد بلغ استبداد الشاميين ذروته في الأندلس

حتى سنة ١١١ هـ / ٧٣٠ م وهي التي انتهت فيها إمارة الهيثم بن عبيد الكلابي، وكان من أشد الولاة تعصباً للشاميين الذين يسمون هنا أيضاً بالقيسين.

وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والحين لإقامة واحد منهم عاملاً على الأندلس، ولكن الحكومة المركزية كانت تسرع بتولية والٍ جديد، وبعد عزل الهيثم أقام عرب الأندلس والياً منهم، ثم اختارت الحكومة واحداً منهم هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فبدأ ولايته في صفر سنة ١١٢ هـ / مارس - إبريل ٧٣٠ م .

وكان عبد الرحمن من كبار جند الأندلس، ومن أولئك الذين قضوا معظم أيامهم في ميادين الجهاد في غالة ، وقد سبق له أن تولى الأندلس سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، فلما عادت إليه الولاية للمرة الثانية لم يكن له هم إلا جمع القوات وإعداد العدة للجهاد، وكانت ولايته القصيرة من أهدأ فترات عصر الولاة، ومن سوء الحظ أن عبد الرحمن استشهد في معركة بلاط الشهداء في رمضان ١١٤ هـ / أكتوبر ٧٣٢ م .

وعقب ذلك أقام عرب الأندلس على أنفسهم واحداً منهم هو عبد الملك ابن قطن الفهرى الذى سيكون له دور كبير في تاريخ الأندلس فيما بعد، وكانت ثورة البربر في المغرب قد بدأت تشتد وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس، فبدأ أمر العرب في ذلك البلد يتحرج.

ولا تذكر لنا المراجع شيئاً واضحاً عن أسباب ثورة البربر في الأندلس، وكل ما نفهمه منها أنها كانت امتداداً طبيعياً لثورتهم في إفريقية، وقد قيل كذلك إن الثورة اندلعت لأن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضي تاركين للبربر أسوأها أى المناطق الجبلية القاحلة، وذلك غير صحيح فإن أرض الأندلس الطبيعية من الكثرة بحيث تتسع لكل المهاجرين عرباً وغير عرب.

ثم إن المسلمين لم يكونوا إذا دخلوا بلداً اقتسموا أراضي الناس فيما بينهم ، والدولة العربية لم تكن دولة فنب وسلب وإنما كانت دولة لها نظامها، وأراضي البلاد المفتوحة كانت لها نظمها التي تحكمها ولم نسمع أبداً أن قبلاً من العرب دخل بلداً فأستولى على مزارع وضيع وطرد أصحابها منها، وإنما الفاتحون كانوا يستقرون في النواحي جماعات عسكرية تحت تصرف الدولة، وفي مقابل ذلك كانوا ينالون حصة مقررة من الخراج، أما العرب والبربر الذين أحبوا أن ينصرفوا للزراعة فقد زرعوا أراضي باتفاق مع أصحابها على أساس الزراعة أو على أساس آخر ، وفي هذا المجال نجد أن البربر كانوا أكثر اشتغالاً بالزراعة، وقد انساحوا دون حرج في الأراضي الغنية في شرق الأندلس وفي أحواض الوديان الغربية وخاصة ناحية وادي ودويرة، وتلك كانت نواح غنية بالأرض والثمار.

وإنما يمكن أن يقال : إن بعض العرب الذين استقروا في نواحي الأندلس تمسكو بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم ظناً منهم أن الدولة دولتهم، وكان معظم هؤلاء من الشامية أي القيسية أي من العرب الذين كانوا يرون أن الدولة الأموية دولتهم ، أما العرب البلديون - ومعظمهم من اليمنية - فكانوا يعيدون عن هذه الرعة لأنهم كانوا قبل كل شيء من أهل معاش وأرزاق وعمل في حين أن الشاميين كانوا يرون أنهم أهل حرب وسياسة وحكم.

في هذه الظروف نفهم أن أخبار ثورة بربر المغرب التي أنكرت سيادة العرب جملة وجدت صدى في الأندلس، فقام البربر في النواحي التي كانت لهم فيها أغلبية على العرب الذين معهم وأخرجوهم وخاصة من جليقية وحوض الدويرة الأراضي فيما بين هذا النهر ونهر تاجة .

وكان أمير الأندلس إذ ذاك عبد الملك بن قطن الفهري ، كبير العرب البلديين وكان هواه ومعظم من حق من اليمنية ، وكان يحب أن القدرة قامت على

الشاميين فما راعه إلا وهى موجهة إلى العرب جميعاً وبلغه من العرب الهاربين إليه من نواحي اشرف وليون أن البربر أنفسهم في ثلاثة جيوش وجهتها طليطلة وقرطبة، والجزيرة الخضراء على الترتيب، فخاف الرجل سوء العاقبة.

في هذه الأثناء كان بلج بن بشر القشيري ومن معه محصورين في سبتة بعد هزيمة الأشراف وكانوا يستغيثون بعبد الملك بن قطن دون جدوى، ولكنه أضطر إلى السماح لهم بالعبور ليعاونوه على القضاء على البربر، وعبروا بالفعل بقيادة بلج ابن بشر سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م ، ولم ينقض عام على دخولهم الأندلس، وكانوا حوالى ١٠ آلاف حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على الثائرين ، وكانت المعركة الحاسمة عند وادى سليط Cuadalate قرب الجزيرة الخضراء أوائل ١٢٤ هـ / نوفمبر ٧٤١ م.

وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون يطاردون البربر ، وكانت نتيجة ذلك إلى روع بربر الأندلس روعاً شديداً فأخذوا يتركون أراضيهم وخاصة في الوسط والشمال الغربي ويعودون إلى إفريقية، وكان لهذه الهجرة الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام في الأندلس ، فإن ألوفاً كثيرة من هؤلاء المسلمين الذين كان ينتظر أن يعبروا بالإسلام كل نواحي شبه الجزيرة هاجروا وتركوا كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريباً من المسلمين ، فأصبحت هذه النواحي ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني الميلادى أرضاً خلاء مفتوحة لنصارى الشمال ليمتدوا فيها كيف يشاءون.

وسيعمر النصارى جزءاً كبيراً منها خلال القرن التاسع الميلادى ويصبح حوض الدويرة أرضاً نصرانية.

لقد خسرو المسلمون نتيجة لاختلاف بعضهم مع بعض ربيع شبه الجزيرة، خسروه دون أن يخرجهم منه عدو، وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض وقلة نظرهم إلى العواقب.

وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب بلج رفضوا العودة إلى إفريقية كما كان الاتفاق بينهم وبين عبد الملك بن قطن ، ووقع النزاع الشديد بين بلج وعبد الملك وانتهى بعزل هذا الأخير وولاية بلج بن بشر في ذى القعدة ١٢٤ هـ / سبتمبر ٧٤١ م.

وقد أنكر أهل الأندلس جميعاً رياسة بلج ومن معه من الشاميين القيسيين وقاموا عليهم وقتلوا بلجا فخلفه شامى شديد العصبية مثله هو ثعلبة بن سلامة العاملى واشتدت الحرب بين البلديين من عرب وبربر في جانب والشاميين في الجانب الآخر.



## أبو الحظار الحسام بن ضرار الكلبى

### ونظام الكور المندة

وأسرع عامل إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى فأرسل والياً جديداً إلى الأندلس هو أبو الحظار الحسام بن ضرار الكلبى فبدأ ولايته فى رجب ١٢٥ هـ / مايو ٧٤٣ م . وبدأ الرجل بداية طيبة، فأمن العرب والبربر البلديين على أرضهم ومصالحهم ونظر فى أمر يبعد عنهم أذى الشاميين ، واجتهد فى إبعاد أذى هذه المنازعات عن أهل البلاد المسلمين من أسلم منهم ومن لم يسلم، لأنهم أساس عمارة البلاد.

ثم نظر إلى الشاميين فبين أنهم جميعاً متجمعون فى قرطبة وإقليمها، وهذا التجمع هو الذى يفتح لهم طريق التدخل فى السياسة وشئون الدولة، ففكر فى أن يوزعهم على نواح شتى من الأندلس لا يزلها من البلديين وأهل اليمن أحد، وقد أشار عليه بذلك أرطباس بن غيطشة شيخ نصارى الذمة، وكان شخصية محترمة مقربة من الأمراء ، وكان يسمى بقومس الأندلس.

وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريق منهم إلى ناحية فيستقروا فيها ويأخذوا ثلث الخراج الذى يؤديه نصارى الذمة والمزارعون ، على أن يقدموا للحكومة عدداً معيناً من الجنود كلما طلبت ذلك.

وقد تم توزيع أولئك الشاميين على الكور الآتية :

كور أو كشيونية وباجه وتدمير	جند مصر
كورة إشيلية	جند حمص
شذونة	جند فلسطين
ريه ، أى ناحية مالقة	جند الأردن
البيرة أى غرناطة	جند دمشق
جيسان	جند قنسرين

وقد أصبحت هنا الكور الثمانية بالكور المجددة وقد استقرت فيها جماعات كثيرة من جند الشام الذين ذكرناهم وأطمأنوا فيها ، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة على النظام الذى ذكرناه، وقد أصبحت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية فى التنظيم الحربى للأندلس .

ولم يستطع أبو الحظار الاستمرار على هذه السياسة الحكيمة ، فمال إلى اليمنية وثار التراع من جديد.



## السنوات العشر الأخيرة من عصر الولاة في الأندلس

حكومة الصميل بن حاتم  
ويوسف الفهري

في هذه الأثناء ظهرت شخصية الصميل بن حاتم بين الشاميين، والصميل شخصية فريدة في باها تجمع معظم النواحي الإيجابية والسلبية في كثير من العرب الجاهلية الذين دخلوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم، فهو شجاع لايهاب الموت، كريم بوجود بكل ما في يده دون تردد، شهيم لا يرتكب ما يمس المروءة، وهو سيد مهذب يعرف كيف يعامل الناس، وهو أيضاً شاعر يقول شعراً يسيراً ولكنه يعجب بالشعر الجيد، وهو بعد ذلك كله أمي ولا يعرف من القرآن الكريم إلا نزرأ يسيراً، وهو عنيف في خصومته شديد الحق لا ينسى ثأره، مسرف في اللذات ما تيسرت لا يتورع عن شرب الخمر، وهو ذكي حيث لا يفوته أمر ولا يتردد في القضاء على خصومه، وهو كسول في معظم أوقاته، ولا يوقر شيئاً ولا يؤمن بشيء، وهو لا يتردد في الإقدام على إرسال خصومه إلى حتفهم دون مبالاة فإذا قام على قدميه لم يبدأ .

هذا الرجل نظراً في أمر الأندلس فبين - بسبب قيسيته أي شاميته - أن الشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب وحدهم لكنهم كذلك لا يستطيعون سيادة البلدين لكثرة هؤلاء استعدادهم للدفاع عن أنفسهم في كل حين، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلا إذا تعاون الفريقان على أي صورة من الصور

فبدأ أولاً فجمع الشاميين إلى لواء واحد، هو لواءه، ثم بحث في المعسكر الآخر  
البلدى عن زعيم يؤيده ويسوس الأمر باسمه في نفس الوقت، فوجد يوسف بن  
عبد الرحمن الفهرى الذى أجمع البلديون على رياسته، وكان الشاميون أيضاً  
مستعدين للخضوع له بسبب شهرته، وأخيراً تم الاتفاق بين الرجلين على أن تكون  
الإمارة ليوسف الفهرى ويكون الصميل مستشاره وصاحب رأيه، واستقر الأمر  
على ذلك فى ربيع الثانى ١٢٩ هـ / ديسمبر ٧٤٦م، ولم تستقر الأمور لهما إلا  
بعد حرب طويلة مع زعيم يعنى يسمى يحيى بن طريف بلغت عصبية اليمنية مبلغاً  
جعلته غير قادر إطلاقاً على احتمال أهل الشام بأى سبيل، ولكنه انهزم وقتل فى  
معركة شقندة ١٣١ هـ / ٧٤٧م وخلا الأمر بعد ذلك للصميل ويوسف الفهرى  
حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

وقد هدأت الأحوال هذه السنوات فيما عدأ ما كان من مجاعة شديدة بلغت  
ذروتها سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣م ، وكانت هذه الجماعة نتيجة لما رأينا من حروب  
شديدة بين العرب فيما بين بعضهم وبعض وبين العرب والبربر ، فإزدادت الهجرة  
إلى إفريقية وقل عدد المسلمين فى شبة الجزيرة عما كان، ويستثنى من ذلك إقليم  
سرقسطة، وكان معظم أهله عرباً يمينيين، فأتقروا فى الأرض وزرعوا وعمروا ولم  
يتأثروا بهذه الفتن إلا قليلاً .



## فتوح المسلمين في غالة وهي فرنسبا

في مفهوم العرب إلى آخر الدولة الأموية على الأقل كانت حركة الفتوح حركة متصلة لا يمكن أن تستوقف ما دامت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام، فإذا ما تم فتح قطر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة، هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بالأتدلس كان هناك واقع أكبر لكى يستمر العرب في الفتح فيما يقع شمال ألبرت، وهو أن تلك الجبال لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال، إنما كان القوط يملكون إقليم سبتمانية وهو يتكون من سبع مديريات تمتد على ساحل البحر الأبيض من جبال البرانس إلى مصب الرون، وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة أرجونه ( أرغونة) .

أما ما يلي جبال البرانس في الشمال فكانت تحتله في الغرب دوقية اقطانية وعاصمتها بردال أو برودو وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى أود أودو وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة، وفي ناحية الشرق، شمال سبتمانية كانت تقوم دوقية برغنديّة وتشمل بقية حوض الرون ، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة.

أى إن العرب في محاولتهم للدفاع شمالا كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات للمقاومة: بقايا قوات القوط في سبتمانية التي تسمى أحيانا لا جاليا جوفيكاً.

قوات دوقية اقطانية.

قوات إمارة برغنديّة.

ثم قوات مملكة القرين.

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم قطلونيا ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجرنده المعروفة باسم خيرونا. وبذلك كان شبه الجزيرة كله في قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى سنة ٧١٦ م .

ولما تولى أمر الأندلس الحر بن يوسف الثقفي في ذي الحجة ٩٧ هـ / أغسطس ٧١٦ م تقدم فدخل أرغونه عاصمة سبتمانية وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب فرنسا الجنوبية للمسلمين .

ولكن حركة الفتح في غالة بدأت بصورة جدية على يد السمخ بن مالك الخولاني الذي ولاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠ هـ / ٧٢٠ م ، وكان رجلاً عظيماً الإيمان والحدس، فقاد جنده من الأرغونة إلى طرطوشة واستولى عليها، وتقدم فحاصر طرطوشة ( تولوز ) أولى المدائن الكبيرة في دوقية أقطانية، فأسرع الدوق أوده وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين، ودارات معركة عنيفة بين الجانبين، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم، وكان ذلك في يوم عرفة ١٠٢ هـ / ٢١ يونيو ٧٢١ م ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغونة إلا بفضل قائد ممتاز من طراز السمخ هو عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي، وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم .

تمكن من جميع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغونة، وهناك انتخبه الجند العربي عاملاً على الأندلس، وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى التي لم تدم إلا قليلاً .

وكان السوالي الذي خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عبسة بن سحيم الكلبي فقد تولى في صفر ١٠٣ هـ / أغسطس ٧٢١ م ، ومن

حسن الحظ أن ولايته استمرت نحو خمس سنوات فلم تنته إلا في شعبان ١٠٧ هـ / يناير ٧٢٦ م .

قضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من الولاية في تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيش قادر على مواصلة الفتح في غالة، فلما تم له ذلك فمض سنة ١٠٦ هـ / ٧٢٥ م ، فرتب أمر حاميتي برشلونة وأرغونة ثم سار شمالاً فأحتل قرقشونة وعقد حلفاً مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم، ثم تقدم إلى خيمة فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم أتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالاً دون أن ينفق وقتاً في الاستيلاء على مدن .

فلما أدرك أوكان احتلها إذ كانت أول عواصم إقليم يورجوفيا، ثم أدرك حوض نهر السارون أحد نهيرات اللوار الذي يلتقي بنهر الرون عند مدينة ليون، واحتلت القوات الإسلامية ليون وما كون وشالون، وهنا تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت ديجون والأخرى صعدت مع السارون شمالاً حتى بلغت صائف على بعد ٧٠ كيلو مترا جنوبي باريس، وهذه كانت أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً ، وهي تبعد نحو ٨٠٠ كيلو مترا شمال جبال البرت .

وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك الحد لدليل قاطع على ما امتازوا به من جرأة وقوة إيمان تصنع المستحيلات ، ولا يقلل من هذه الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد، فالواقع أن البقاء عنده كان مستحيلاً إذا نظرنا إلى الظروف العامة التي تمت فتوح المسلمين في غالة خلالها فإن عنبسة كان يوغل في قلب أوروبا الغربية نفسها وكانت الشعوب الجرمانية متراسة يلي بعضها بعضاً، ثم إن عُرفوا بالكارولنجيين ليحلوا مع الميروفنجيين وكان شارل مارقل، وتسمية المراجع العربية كارل يجمع قوى أنصاره ويتنظر الفرصة التي تسمح له بإثبات استحقاقه لتاج الملك من دوق ملك الميروفنجيين الغضب .

وأخذ عنبسة مع رجاله طريق العودة إلى الأندلس سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٨ م  
محملين بالغنائم بعد أن اجتاحتها حوض الرون كله، وتخطوا اللوار ووصلوا إلى  
السين.

ولا نستطيع القول بأن عنبسة فتح جنوبي غالة أو حوض الرون، لأنه في  
الواقع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد، ولكنه على  
أى حال الفاتح المسلم الوحيد الذى وصل إلى هذا المدى في فتوحه، وربما جاز  
تشبيه حملة عنبسة بحملة عقبة الكبرى مع اختلاف الظروف طبعاً .

وكان لأبد من حملات ضخمة أكثر نظاماً ليتم فتح هذه النواحي كما أتمت  
حملات زهير بن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير عمل عقبة بن نافع،  
ولكن ظروف العرب في المغرب والأندلس لم تكن تسمح لهم بمواصلة الفتوح بالقوة  
التي عهدناها فيهم، وذلك بسبب الخلافات بين العرب أنفسهم ثم بينهم وبين  
البربر، ثم إن حملة عنبسة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها، فقد اقتحمها العرب  
اقتحاماً وأرغلوا في داخل بلادها دون أن يستطيع أحد مقاومتهم.

ولقد شعر القائم بأمر مملكة الفرنجة إذ ذاك وهو شارل مارتل - أو كارل -  
بأنه لا بد أن يقوم بعمل حاسم إذا عاد العرب مرة أخرى، وبالفعل بدأ يستعد  
للقاء حاسم، فأخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد، وصالح أمراء برغنديا واتفق  
مع رجال سيمانية ومع الدوق أودو ليقوموا معاً بعمل حاسم ضد المسلمين.

ومن سوء الحظ أنه وقع انشقاق في صفوف المسلمين المقيمين في الثغر  
الأعلى الأندلسى أى حوض الإيرو فكان له أثر سيء على سير الفتوح فيما بعد،  
فإن الدوق أودو كان قد حالف المسلمين، بل صاهر قائداً بربرياً من قوادهم يسمى  
مونوسة كان مركزه في الناحية الغربية من جبال البرانس، ولم يرض المسلمون عن

هذا الصهر لأن مونوسة بدأ يأخذ جانبي أودو ورجال أقطانية، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المسلمين بمن معه من الرجال .

وتذهب الروايات إلى أن عبد الرحمن الغافقى الذى كان يحكم أرغونة وينظم أعمال الجهاد اختلف مع مونوسة اختلافاً شديداً، وكان عبد الرحمن رجلاً عفيفاً بالغ الاستقامة من طراز عقبة بن نافع، فأشدد مع مونوسة فزاده نفوراً وانضمت إليه جماعات كثيرة من البربر.

وكان عنبسة قد استشهد في طريق عودته إذا دهمتهم قوات نصرانية كبيرة في خوانق جبال البرت، وقد قتل عنبسة في اللقاء في سنة ١٠٧ هـ / ديسمبر ٧٢٨م وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس من بعده عذرة بن عبد الله الفهرى الذى حكم حتى ربيع الأول ١١٠ هـ / يونيو، يوليو ٧٢٨ م .

وقد قام عذرة بعلميات عسكرية قليلة في غالة ولكن يبدو أن الجند الإسلامى الذى كان مركزه في أرغونة كان يقوم بضربات سريعة وغارات عنيفة في كل وجه، ومثل هذه الغارات والضربات توتى غنائم وافرة للمحاربين أنفسهم ولكنها تضر بالقضية الإسلامية الكبرى ، فهى من ناحية ترعب الناس من المسلمين وتلقى في روعهم أنهم أهل غارة وسلب ونهب لا غير ، ومن ناحية أخرى هى تفقد الجنود طابع النظام وخواص الجدية والإيمان والبسالة الحقيقية.

ومن أسف أن عذره بن عبد الله الفهرى لم يستطع ضبط رجاله فذاع اسمه في جنوبي فرنسا كلها كرجل سفاك فهاب وتطلع الناس هناك إلى من يخلصهم من هذه الغارات السالبة الناهية ، وذلك كله مهد الطريق أمام شارلك مارتل.

أولاً : ومن حسن الحظ أن قيادة الفتح صارت في صفر ١١٢ هـ / أبريل ٧٣٠ م إلى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، فقد استطاع بحزمه وروحته العسكرية أن يضبط جنوده ويعيدهم إلى النظام من جديد، حقاً إنه لم

يستطع استعادة مونوسة إلى صفوفه، ولكنه على أى حال أوقف تيار تدهور الفتوح إلى غارات، ولو أن عبد الرحمن الغافقى كان أقل عنفاً مما كان في الواقع لربما استطاع أن يصل إلى نتائج أحسن، ولكنه كان جندياً عنيفاً بالغ الحماس لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة مما قلل فرص النصر الكبير أمامه، وقد خرج عبد الرحمن الغافقى للغزو في غالبية مغاضباً لعييدة بن عبد الرحمن الفهرى عامل إفريقية، وكانا قد اختلفا في أمر من أمور الغنائم .

خرج عبد الرحمن الغافقى لحمته الكبيرة في أوائل ١٦٤هـ / ربيع ٧٣٢ م وكان معه ٧٠ ألف جندى تقريباً غالبهم من البربر، في حين أن الرويات النصرانية تقول: إنه كان يقود ٤٠٠ ألف مقاتل.

ولم يحاول عبد الرحمن الغافقى أن يكسب صداقة الدوق أودو، بل لم يعمل على إيقافه على الحياض، وإنما عبر جبال اليرت في صيف ٧٣٢ م من ممرات من رتشفاله فأقضى رأساً إلى قلب بلاد أودو، فأضطر هذا إلى طلب العون من رجال الفرنجة، واستولى عبد الرحمن على طولوشة مرة أخرى ثم ارتد شرقاً إلى حوض الرون فأخذ ثورة كانت في مدينة آرل، وعقب ذلك عاد عبد الرحمن واتجه نحو برودو عاصمة أقطانية، وتصدى له الدوق أودو فهزمه عبد الرحمن هزيمة كبرى على ضفاف نهر الدوردوتى، ثم دخل المسلمون يوردو واحتلوها وأسرع أودو نحو شارل مارتل، وتقدم عبد الرحمن فأحتل بواتييه بعد صراع عنيف وشرع يستعد للسير شمالاً نحو باريس .

وعجل شارل مارتل الذى تسميه مراجعنا قارل أو كارل فحشده كل ما استطاع من قوة للقاء المسلمين واستغفر الناس استغفاراً دينياً فتضخم جيشه وسار جنوباً للقاء العرب شاعراً أن هذه هي قضيته الكبرى لكى يثبت جدارته بالملك من دوق الميروفنجيين.

وكان الجيش الإسلامي كبيراً، ولكن لا بالضخامة التي يصفه بها المؤرخون  
النصارى، وينبغي قبل أن نقص تفاصيل المعركة القادمة أن نلاحظ أولاً أن الجيش  
الإسلامي رغم شجاعة رجاله وارتفاع قواهم المعنوية كان قد بعد جداً عن بلاد  
الإسلام، فإننا الآن على بعد ٤٠٠ كم تقريباً شمال جبال ألبرت، وجبال ألبرت  
تبعد ٩٠٠ كم عن قرطبة، وهذه مسافات شاسعة جداً تجعل موالة الجيوش بالمؤن  
والأزواد والأمداد أمراً عسيراً، ولو أرسل عبد الرحمن الغافقي رسالة استنجد إلى  
قرطبة فإن حاملها لا يصل في أقل من شهرين في حين أن قارل " كارل " كان  
يحارب في بلاده وبين أهل عشيرته .

ثانياً : كانت الغالبية العظمى من المسلمين البربر ولم تكن العلاقات بينهم  
وبين العرب أهل القبادة على ما ينبغي في هذه الظروف، ولم يكن لدى عبد الرحمن  
الغافقي من السياسة وبعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف الجيوشى ليستطيع  
السيطرة الكاملة على قواته.

ثالثاً : كان الوقت خريفاً ، وهو موسم الأمطار الثقيلة في هذه النواحي،  
والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر، وكانت تلك المناطق كلها غابات، والفارس  
العربي لم يكن يحسن الحرب في الغابات، ثم إن خيول المسلمين العربية الضامرة  
تأثرت دون شك بالبرد والأمطار ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التي تعمل بها  
في الجو الدافئ الجاف.

رابعاً : يبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان جندياً عظيماً ولكن كانت تنقصه  
القدرة على وضع خطة محكمة للقتال كما رأينا مثلاً عند حسان بن النعمان وطارق  
ابن زياد، فقد استمر عبد الرحمن في سيره حتى لقيه الفرنجة.

وأخيراً : لدينا مسألة الغنائم الكثيرة التي كان الجيش الإسلامي يسحبها

وراءه، ويفهم من بعض الروايات أن خوف المسلمين على ضياع هذه الغنائم كان من أكبر أسباب الهزيمة.

وقد كان اللقاء على بعد ٢٠ كيلو مترا شمال بواتيه في الطريق إلى تور وجنوبي مجرى اللوار، في موضع قريب من طريق روماني قديم هو المسمى بالبلاط، وفي هذا الموضع قرية تسمى الآن Nounair la Bataille وربما كان موقعها يحدو مكان المعركة.

أما تاريخ المعركة فالرأى السائد اليوم أنها بدأت في ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢م/ أواخر شعبان ١١٤ هـ واستمرت إلى ٢٠ أكتوبر أى أوائل رمضان من تلك السنة .

دارت المعركة إذن فوق الأسبوع مما يدل على أنها كانت معركة حامية والحق أن كلا الجانبين بذل أقصى وسعه في القتال، وصبر المسلمون صبراً طويلاً حتى تجمعت عليهما قوات نصرانية من كل ناحية ، فلم يقتصر الأمر على الفرنجة بل كان هناك كثيرون من أجناس جرمانية أخرى، وآخر مراحل المعركة كان هجوماً عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامي فأنتهت الغنائم وتزعزع نظام الجيش ووقعت ثغرات نفذ منها الأعداء .

وفي أثناء ذلك استشهد عبد الرحمن الغافقي بسهم أصابه، وكان هذا نذير الهزيمة.

وقد استمر القتال مع ذلك حتى هبط الليل فتحاجز الفريقان، وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فتسللت من مكان المعركة تحت الظلام، فلما أصبح الفرنجة لم يجدوا للمسلمين أثراً ، ولكنهم وجدوا ذخائر عظيمة فأنتهبوا ولم يفكروا في تتبع المسلمين، فسلمت البقية الباقية منهم وعادت إلى أرغونة .

وعندما بلغ الخبر إلى عبيدة بن عبد الرحمن الفهري عامل إفريقية ولى عبد الملك بن قطن الفهري مثله على أمر الأندلس، فأسرع هذا إلى أرغونة، ولى الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين فى جبال ألبرت وجنوب فرنسا، وقف سلطان المسلمين فى سبتمانية وعقد معاهدات مع نفر من الرؤساء خلفوا الدوق أودو فى حكم نواحي أقطانية وتمكن فى وقت قصير من أن يتلافى الكثير من الآثار السيئة التى تخلفت عن هزيمة البلاط، ومن حسن الحظ أن كارل شغل عن المسلمين بأعداء كثيرين من أبناء جنسه فى شمال مملكته فأتاحت الفرصة للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد .

وقد تمكن عبد الملك بن قطن من إعادة تنظيم القوات الإسلامية بفضل قائد من قواده تسميه المراجع النصرانية يوسف وربما كان يوسف الفهري.

وقد فتح يوسف هذا مدناً من آرل وابينون وفالانس وليون وثبت حدود أملاك المسلمين هناك، ثم اخضع إقليم دوفينية الذى يمتد شرق نهر الرون ويشمل جزءاً كبيراً مما يعرف اليوم بالرفيرا الإيطالية، واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان المسلمين على نواحي جبال ألبرت.

ونلاحظ أن المسلمين اتخذوا سياسة جديدة لحكم ما بيدهم من فرنسا، وهى إقامة حاميات قوية فى المدن وتحصين قلاعها واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب.

هكذا كان الحال فى ليون وابينون التى يسميها المسلمون صخرة اابينون وآرال وغيرها.

ثم جاء بعد ذلك عقبة بن الحجاج السلولى فآتم إخضاع نواحي برغنديّة، وكان عقبة مجاهداً عظيماً، فتجددت همة المسلمين للقتال، وأحس كارل أنه لا مفر له من مواجهة المسلمين مرة أخرى، وتقدم بالفعل بجيش كبير يقوده هو وأخوه

شليديرا، وسار نحو المسلمين أيضاً ملك الومباردين، فأضطر المسلمين إلى إخلاء  
أبنون وتراجعوا إلى أرغونة وتحصنوا فيها .

وهناك ثبتوا نحو ٣٠ سنة ، فلم تسقط إلا في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩م وكان  
ذلك في أيام عبد الرحمن الداخل ، وقد وجد عبد الرحمن أنه لن يستطيع المحافظة  
على أملاك إسلامية شمال ألبرت فأخلى هذه الأراضي وأقتصر على شبه الجزيرة  
الأيبيرية، وكان ذلك خطأ منه، لأن جبال ألبرت هي مفتاح إسبانيا، وكانت نتيجة  
تخيلية تماماً عما يقع شمالها أن أستعاد الفرنجة فيما بعد منطقة قطلونية فأنشأ شرلمان  
فيها ولاية الثغر الإسباني ( لا ماركا هيسبانيكا) أو معنى ذلك أن شبه الجزيرة  
اقتطع أيضاً من الشرق بعد أن اقتطع من الغرب كما رأينا.

وقد بقيت للمسلمين جماعات محاربة في نواحي سبتمانية ودفينية ،  
وأنسحب معظمها إلى نواحي جبال الألب الحصينة حيث اتخذوا لأنفسهم مواقع  
يقومون منها بأعمال عسكرية فيما يجاورها، وقد وصلت أعمالهم الحربية على قلب  
سويسرا.

ولكن هذه لم تكن فتوحاً ولا أعمالاً إسلامية، إنما هي غارات معظم هدفها  
الدفاع عن النفس، والسلب ، وقد تلاشت هذه الجماعات شيئاً فشيئاً تاركة  
أسماءها على بعض النواحي وبعض وديان جبال الألب الجنوبية أو الشرقية، ومن  
أمثال امرو وهو عمر واشمة وهو هرثمة وسارازان، وهو اسم عام يراد به المسلمين  
عامة في هذه النواحي .



## قيام الدولة الأموية الأندلسية

وصلنا بتاريخ الأندلس إلى ولاية الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى، وهى ولاية طويلة ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبى ساد البلاد فى أثنائها، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب، ولكن وضع الأندلس يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء، إنما هو يحتاج إلى حكم قوى نشيط فإن البلد خضع للمسلمين، ولكنه لم يتحول إلى بلد إسلامى بعد، فقد كانت غالبية السكان نصرانية، ولو أستمروا على ذلك فإن أمر المسلمين فى الأندلس كان لا بد أن يتلاشى، فهو خارج مملكة الإسلام، وبعيد كل البعد عن أرض الخلافة، ولو عادت الفتنة مرة أخرى ولو لفترة قصيرة فقد كان تلافى النتيجة المحتممة مستحيلاً.

وقد أمكن تلافى هذا المصير بحادث هو من قبيل المصادفات ولكنه كان من أسعد المصادفات فى تاريخ الإسلام، وذلك أن قيام الدولة العباسية فى ربيع الأول ١٣٢ هـ / يونيو ٧٤٩ م أقرن بمذابح واسعة النطاق أنزلها العباسيون بالأمويين انتقاماً لما فعلوا بآل البيت فى الظاهر، وتخلصاً من بقايا الأمويين وأحسانهم فى الباطن.

وقد حُصد الأمويون دون رحمة، ومن هؤلاء أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك وكانوا أربعة ذكور عدداً البنات، وقد قتل الابن الأول فيمن قتل من الأمويين فى دمشق عندما دخلها العباسيون، أما الثانى فقد قتل فى مذبح ديرة الجماجم، وفر الثالث والرابع، فقد كانا فى بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما، فقرا معاً، وكان أولهما عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، وكان فى التاسعة

عشر، وأخ صغير له في الثالثة عشرة، وأختبأ في مكان على ضفة الفرات ثم لجأ على نواتي ليعينها على العبور، فخانهما هذا الرجل ودل العسكر عليهما فقرا على وجهيهما وألقيا بنفسيهما في الماء لعبرا سباحة، وقف الجندي على الشاطئ يدعوانهما إلى العودة ويعدانهما بالأمان ، وأرتد الأخ الأصغر ليعود ، وحذره أخوه فلم يسمع، فلم يكن يصل إلى الشاطئ حتى قتل.

أما عبد الرحمن فقد فر إلى قرية بالشام كان قد اتفق مع أخته أمة الرحمن وأم الأصبح على أن ترسلا له مولييه بدرأً وسالماً بنقود إلى هذه القرية، ومضى الثلاثة هاربين حتى عبوا معه ووصلا المغرب، وكادا يقعان في يد عبد الرحمن بن حبيب ، ولكنهما نجيا إلى ساحل المحيط عند طنجة، واختفوا في قبيلة نفرة وكانت أم عبد الرحمن من بنات هذه القبيلة.

وعلى بعد ٦٠٠٠ كيلو متر من بغداد شعر عبد الرحمن بشيء من الأمان، وكانت سنة إذ ذاك عشرين سنة، وكان حرباً أن يقضى بقية عمره في همول ودعة ولكنه كان على النفس بعيد المطامح، فأخذ من موضعه هذا يتطلع إلى ما حوله رجاء أن يجد وسيلة يخرج بها من ذلك الخمول.

وفي سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش في قبيلة مغيلة في حماية شيخها، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه، وكان أمره قد صار على الصميل ويوسف الفهري، وكان سالم مولى أخته قد حدثه عنه لأنه كان في جملة عساكر موسى بن نصير، ولكن سالماً لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المشرق، وثبت معه بدر الذي سيكون له نصيب كبير في إقامة صرح الدولة الأموية الأندلسية.

وكانت في الأندلس جماعة كبيرة من موالي بني أمية، ما بين موالي خلفاء كالوليد وسليمان وهشام أبناء عبد الملك ، وموالي البيت الأموي عامة وموالي

موسى بن نصير وموالى مغيث الرومى ومن إليهما من موالى بنى أمية ، وأنضم إليهم موالى القرشيين وقد عرفوا بموالى قريش فكثرت عددهم ، وكانوا من خيرة مسلمى الأندلس لما لهم من معرفة بشئون الدولة والإدارة ، وكان يوسف الفهرى قد ادعى ولاء أولئك الموالى جميعاً عند ذهاب أمر بنى أمية ، ووجدوا هم في ذلك قوة لهم فأندرجوا في أنصار يوسف ، وقد أدرك عبد الرحمن أنه يستطيع الوصول على شىء بفضل هؤلاء الموالى فى الأندلس.

لهذا أرسل مولاه بدرأ برسالة على زعمائهم فى الأندلس وأهمهم ثلاثة: أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، ويوسف بن يخت يرجوهم فيها معارنته على الوصول إلى الأندلس للأستقرار فيها فى ظروف حياة مناسبة لمثله .

ومن أول الأمر فهم الموالى أن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس ، وكان ذلك يوافق أهدافهم ، فأهتموا للأمر وكلموا فيه الصميل بن حاتم لأنهم كانوا يعرفون أن القوة فى يده ، ومن الغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهرى ، والمفروض أنهم كانوا من مواليه ، وقد وعدهم الصميل خيراً .

وكان يوسف الفهرى مشغولاً إذ ذاك بأمر ثورة فى سرقسطة قام بها اليمانيون ، وكان يلح على الصميل وموالى بنى أمية فى الخروج وهؤلاء يسوفون ، ثم خرج الجيش آخر الأمر ، وفى أثناء الطريق تبين موالى بنى أمية أن الصميل مسيحي يحتال عليهم ، وأنه لا يضم لعبد الرحمن هذا خيراً ، فأنصرف زعمائهم عن الجيش واتجهوا إلى مراكز الموالى فى البيرة وجيان ، وفى الطريق قرروا أن ينفضوا يدهم من الصميل والقيسية المغربية وأن يجربوا حظهم مع اليمانية الكلية.

وكانوا موفقين فى هذه الخطوة ، لأن اليمينيين كانوا يتوقون إلى الأخذ بثأر هزيمتهم فى شقنדה ، وكانوا تواقين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن طريق يوسف الفهرى.

ولهذا استجاب اليمينيون في إقليم غرناطة إلى هذا النداء ، وتحمسوا لعبد الرحمن على أمل أن يدركوا الرياسة معه، وقرروا مع موالى بنى أمية استقدامه على الجزيرة ، وهكذا كان .

وعبر عبد الرحمن في ربيع ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م إلى الأندلس ونزل في فرضة المنسر **Almunecar** في محافظة غرناطة الحالية، ومنها انتقل إلى طرش **Torox** وكانت دار يوسف بن بخت شيخ جند قنسرين وأحد كبار موالى بنى أمية، وهناك توافد عليه الموالى وأتباعهم وذاع الأمر في الأندلس كله .

وبلغ الأمر الصميل ويوسف الفهري في سرقسطة، وكانت ظروفهما سيئة بسبب سوء تعرضهما مع الجند فلم يكن في أحد حماس حقيقى للنهوض معهما، وأقبل الشتاء وهما في هذا البئر القصى، ومضى الناس يهونون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين: إنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش في سلام.

في هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن في طرش يحفل بالناس ، وكان أكثر الوافدين عليه والمنضمين إليه من اليمينيين وانضمت إليهم جماعات من البربر، وكان هؤلاء يرجون أن يجدوا الراحة من القلاقل في ظل حكم جديد.

وعندما أقبل الربيع بدأت بطون مضر والقيسية تتوافر على الصميل ويوسف وكانا قد انتقلا إلى قرطبة، وظهر أن المغريين الشاميين لا يريدون أن يتنازلوا عن الرياسة التي وصلوا إليها مع الصميل بن حاتم ونظامه فكثرت جمعهم ، وإزاء ذلك شرع عبد الرحمن يمر بقواته على منازل اليمينيين لاستنهاضهم، فأنضم إليه الكثيرون، وتقدم نحو قرطبة وخرّب معسكره على الضفة الجنوبية للنهر، في حين تزايد حجم جيش الصميل ويوسف وتأهب الجانبان للقاء الحاسم.

وقع ذلك اللقاء يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة ١٣٨ هـ / ١٤ مايو ٧٥٦ م عند المصاراة وهي طرف قرطبة الغربى، وانتهى اليوم بنصر حاسم لعبد الرحمن،

ووصل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم، ثم صلى بالناس وخطب على منبر قرطبة، ويعتبر ذلك اليوم ميلاد الدولة في الأندلس، بل ميلاد عصر جديد في تاريخ الغرب الإسلامي كله .

واستأمن الصميل ويوسف إلى عبد الرحمن فأمنهما، ثم نكث عليه ، وانتهى الأمر بجبس الصميل وموته مخنوقاً في سجنه .

أما يوسف الفهري فقد تشرد في نواحي الأندلس حتى قتل في قرية قريبة من طليطلة .

صقوة القبول هذه كانت لحة سريعة ومختصرة عن بلاد قبل وبعد الفتح الإسلامي ثم قيام الدولة الفاطمية معتمدين كل الاعتماد على شيخ المؤرخين الأندلس الدكتور المرحوم حسين مؤنس والدكتور السيد عبد العزيز والدكتور مختار العبادي والدكتور محمود على مكى والدكتور طاهر مكى وغيرهم.

فلهذا نقدم للمكتبة العربية كتاباً هاماً في التراث العربية «مطمح الأنفس ومسرح الناس في ملح أهل الأندلس» للكاتب ابن خاقان فالكتاب يلقي الضوء على بلاد الأندلس منذ الفتح حتى القرن الخامس من شتى النواحي السياسية والأقتصادية والاجتماعية مع التركيز الهام على رواد الفكر من شتى مجالات المعرفة وتوضيح مصنفاتهم ومؤلفاتهم فالكتاب طفرة جديدة في مجال الدراسات الأندلسية.

وصاحب هذا العمل هو الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي أبو نصر : كاتب ، مؤرخ من أهل إشبيلية ولد في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ونشأ فيها ، وكان كثير الأسفار والرحلات. قال ابن خلكان في وفيات الأعيان عنه «خليع العسذار في دنياه، لكن كلامه في تواليه كالسحر الحلال والماء الزلال» مات ذبيحاً بمدينة مراكش في الفندق سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م ، أوعز بقتله أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين.

ومن تصانيفه : «قلائد العقيان» في أخبار شعراء المغرب ، «رأية المحاسن وغاية المحاسن» أدب ، و «مجموع رسائل» و رسالة في «ترجمة ابن السيد البطليوسي» أوردتها المقرئ في «أزهار الرياض» ثم الكتاب الذى بين ايدينا . فالكتاب موسوعة مختصرة للتاريخ والأدب والآثار والجغرافيا والفقہ والحديث وعلوم أخرى.

وقد أعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على مخطوطات دار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية ، إلى جانب الطبقات القديمة وخاصة ما طبعت في تركيا .

وأسأل الله العون والمغفرة ، يا أرحم الراحمين والله الأمر .،،

## مقدمه

## مديحة الشرقاوى

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م



## مقدمة المؤلف

أما بعد حمد الله الذي أشعر لنا إلهاماً ، وصير لنا إلهاماً ، وسير لنا برود آداب ، ونشرنا للانبعاث إلى اثباتها والانتداب ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة ، ونبأه منة ونعمة ، وسلم تسليمًا :

فأنه كان بالأندلس أعلام ، فتنوا بسحر الكلام، ولقوا منه كل تحية وسلام، فشعشعوا البدائع ووقوها ، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها، ثم هورا في مهاوى المنايا، وأنطسوا بأيدي الرزايا، وبقيت مآثرهم غير مثبته في ديوان ، ولا مجملة في تصنيف أحد من الأعيان ، تجتلي فيه العيون ، وتجتني منه زهر الفنون ، إلى أن أراد الله إظهار أعجازها، واتصال صدورها بأعجازها ، فحللت من الوزير أبي العاص حكم ابن الوليد عند من رحب وأهل ، بمكارمه وأهل ، وندبني إلى أن أجمعها في كتاب وأدركني من التشط إلى اقبال ما ندب إليه، وكتابة ما حث عليه ، فأجبت رغبته، وحليت بالأسعاف لجه ، وذهبت إلى إبدائها، وحنيد علياتها، وأمليت منها في بعض الأيام ، ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يشتمل على سرد غرر الوزراء ، وتناسق درر الكتاب والبلغاء .

القسم الثاني : يشتمل على محاسن أعلام العلماء ، وأعيان القضاة  
والفهاء.

القسم الثالث : يشتمل على سرد محاسن الأدباء، النوايغ النجباء ،  
وسميتها «مطمح الأنفس ، مسرح التأنس ، في ملح أهل الأندلس» وأبقيتها  
لذوى الآداب ذكراً، ولأهل الإحسان فخراً ، يساجلون به أهل العراق، ويحاسنون  
بمحاسنها الشمس عند الإشراق والله أسأله الهام القصد، وانفراج بابه الموصل ، بمنه  
وكرمه .

